ومضة

أرى نقطة فوق تلك العين!

"عائلتـه ليسـت بعراقـة عائلتنـا حسـباً ونسـباً، بيـد أن شـبابه وثـراءه ووسـامته وطموحه صفات يصعب ردّها!" هذا ما قاله الوالد للوالدة على مسمع منها.

قضي الأمـر إذاً؛ والمغنـاج الحاذقـة، ابنـة الثانيـة والعشـرين، موافقـة علـى هـذا القران ودفتر شـروطه ــ موافقة أن تبقى زوجته الأولى، قريبته التي زُوّجَهـا يـوم أن كـان ما يزال في مطلع العشـرينيات، أن تبقـى علـى ذمتـه، صـورياً، لقـاء بقائهـا فـي الوقـت نفسه في خفاء القرية ذات الاسم الصعب التي يتحدر منها.

مقول القول أن العريس الذي لم يجـاوز عتبـة الثلاثـين ــ العـريس ذا المسـتقبل الواعد رغـم زواج سـابق فـي سـجله العـدلي، العـريس الجـامع فنـون المقـاولات علـى أنواعها، العريس ذا الطموحات السياسية ــ في حكم العـازب المقبـل علـى الـزواج لأول مرة، وعلى التفرغ بكليته لريم المدللة المحبوبة الحافظـة عـن ظهـر قلـب، ومنـذ نعومـة أظافرها، قواعد السلوك المعمول به بين كرائم عائلات بلدها، لا سيما أجياله الطالعة، ــ تلـك القواعـد المتأرجحـة بـين العصـر وإغراءاتـه وبـين قـراءة حروفيـة لنصـوص محصـنة بقدسية تهزأ من صروف الأزمنة والدهور .

لم تحتج البنية التي اختلفت، طوال سنوات، رفقة سائق ومربية، إلى مدرسـتها الخاصة الواقعة على مئات الأمتار من بيتها فـي الحـي الأنـوف نفسـه ــ لـم تحـتج يـوم قاربت البلوغ إلى مدرّس خصوصي لتفك جفر قواعد السـلوك تلـك وسـواها مـن كلمـات متقاطعة تقوم من عائلتها، العريقة بعد ضعة ككل العائلات، ومن طبقتهـا، الموسـرة بعـد حرب، مقام الدستور الشفوي.

بخفة السحرة أدارت ريم دفة سفينتها؛ بخـلاف لـدات لهـا، لـم تحـتج إلـى أزمـة مراهقة طويلة لتتبين أن سفينتها لا تبحر بأشرعتها الخفّاقة في ربع مائي خال، بل في بحر تحت صفحة مياهه الهادئة تيارات قلّ من يجرؤ على السباحة بعكسها.

"هذا هو مجتمعنا برجاله ونسائه، بشبابه وشيبه، بممنوعاته ومسموحاته. هـذا هـو: جبـل أصـم لـن تهـزه ريـاح ولا بـراكين. وأنـا، فـي كـل الأحـوال، سـعيدة بمكـانتي الاجتماعية، تياهة بقسمتي مـن الـدنيا . زيـن الشـباب فكـر بمصـاهرتنا؛ ممـا يعنـي أن عائلتنا ببال كثيرين غيره. ماذا عساه سمع عنا وعني؟ وأية نشـوة هـذه أن يشـاطرني سريري، ليلة بعد ليلة، من يلهب الشاشات تحليلاً وتفنيداً ومن يخـالط أهـل القـرار فـي بلدنا؟!"

نساء العائلات الحميمات يعملن كخلية أمن على جمع المتوفر من معلومات، من أوثق المصادر، عن الصهر العزيز؛ نشاطهن الاستقصائي المشترك لا يمنع كل واحدة منهن من التآمر بمنتهى السرية على الأخريات بشأن ما سترتديه وتتزينه وتتسرحه يوم حفل الزفاف الميمون. فالتجمل ليوم عرس سوف يتقاطر للمشاركة فيه كبار القوم وأنجالهم ليس كالتجمل لحفل عشاء عابر. يوم عرس من قبيل الذي تستعد له العائلة سوق بكل معنى الكلمة؛ ففضلاً عن بز المنافسات اللدودات، إنه يوم قد يحدد مصائر أيام وحيوات. فمن يدري أية عيون سوف تتقابل ليلتذاك وأية وجوه سوف تتبادل الابتسام...

تحسباً، أقل واجب الوالدات الحريصات على مستقبل أبنائهن وبناتهن أن يتميزن ما يستطعن إلى ذلك سبيلاً فيعرّف عن الواحدة منهن بأسرع علامة يوم أن يسأل "ابن من هذا؟ ابنة من هذه؟"

رنت الهواتف في صالونات ومضاجع كثيرة، السؤال هو هو: "ماذا تعرفون عنه؟" وإذ اكتمل الملف أو شارف على الاكتمال، على ما قدّرت زوجة عم ريم، بادرت إلى تنظيم حفلة شاي مغلقة ضمتها وابنتها والعروس وأمها. في المختصر: " لا غبار على كرمه وفحولته. ذكاؤه خطير مبطن بخباثة عتيقة. دينه قشور أما بصبصاته وغزواته النسائية فسر مذاع... حسناته تشيل سيئاته وجميعنا معك يا ريم لنعينك على لجم نزواته إن جاوزت الحد أو أوشكت".

لم يبد على سعيدة الحظ مزيد اكتراث بمطالعة زوجة العم المديرة حياتها الأسرية بمعاصرة لم تكن مما يروق والد ريم الذي شمت بها وبتربيتها، يوم أصرت ابنتها على الطلاق من عسكري سليل أسرة قارونية الثراء!

بينها وبينها كانت ريم تكتم ضجرها مسترجعة أفكاراً سبق أن راودتها مذ أصبح زواجها شغل العائلة الشاغل: "ما للمقبلة مثلي على زواج سعادته في أسوأ الأحوال مكفولة من أحاديث العمات والخالات والصديقات! ثرثراتهن مسلية ولكن للتسلية حدوداً".

ثم إنه من أبده البديهيات، في نظر ريم واعتبارها، أن تتزوج، هي الجميلة الثرية الفطنة المغناج، من رجل يسير واثق الخطو على طرق النجاح ! ثم إنه من أبده البديهيات في نظرها أن ينشد من رجولته مكللة بالغار على رؤوس الأشهاد أنوثة نموذجية؛ أنوثتها !

هذا ما كان يدور في خلد ريم خلال الأسابيع التي سبقت انتقالها من دارة والديها إلى شقة الزوجية، هديته المليونية التي أصر الوالدان، في عداد ما أصرا عليه من تدابير وقائية تردع العريس اللعوب من الشطط، على أن تسجل باسم ابنتهما. لم تتدخل ريم في موضوع تسجيل الشقة باسمها، تركت للأهل مهمة التفاوض في أمر

الشـقة/الهديـة متذرعـة بـأن همهـا الأول والأخيـر أن تعيـد صـياغتها وتأثيثهـا بمسـاعدة مهندس إيطالي. ألم يهمس لها ذات ليلة، في حمأة التفاوض مع الوالدين على محفظة الهدايا التي طُلب منه أن يقدمها لها، أنه ثقة كله برفيع ذوقها؟

العريس اللسن حـوّل الزيجـة المنشّـاة ببرتوكـولات صـارمة إلـى مـا يشـبه قصـة الحب! رجلي غزل وجذاب، هذا ما أعلنته العروس يوم التفت صديقاتها من حولها يودعن عزوبتها. خيّل لها يومذاك أن نظرات العديد منهن سـهام غيـرة، ولـذّ لهـا أن تتلقـى تلـك السهام وأن تعيدها إلى المرسلات بخبث، مفيضة في الإطراء على صيدها، مسترسلة في تعداد صفاته الحميدة، متعمـدة أن تكتفـي بـالتلميح إلـى مـا تاقـت الصـديقات إلـى سماعه من أحاديث تلك الصفات.

بعد أسبوع الشهد والعسل، عادت ريم مغتبطة تزف للسائلين أخبار سعادتها: يا له من عارف بأهواء النساء وباختلافهن. أمـا الـدلال فحـدث ولا حـرج. فهـذا صـديق وضـع "بتصرفنا" طائرته الخاصة وذاك الذي عتب على هذا الأخير أصر أن يتكفل بنفقات إقامتنـا في فندق لا يرتاده إلا النجوم والنجمات، والثالث الذي ساءه أن يقصّر عـن زميلـه انتـدب أحد أفخر محلات الفضيات أن يرسل "لنا" بالبريد السـريع إشـعاراً بـالمبلغ ذي الخمسـة أصفار الذي أودعه باسمنا. هذا ما روته العروس لوالدتها فـي أول جلسـة حميمـة لهمـا بعد عودة الزوجين من رحلتهما الأولى.

سارت حياة ريم على أكمل وجه، حملها الأول، وما أحدثه من ثورة في جسـدها المثير لنهم زوجها، جعلها تتمسك بقوامها وحميتهـا. لمـا تيقنـت أن ولـي العهـد الـذي حلما به لن يكون "باكورتهما" وأنها برسم حمل ثان، بدت عليها لوائح عجلة ليسـت مـن طباعها ــ عجلة إلى الوضع وإلى الاستعداد في أسـرع وقـت لحمـل ثـان يصـيب الهـدف ويحسّن من ظنه بها ومن ظنها بنفسها.

خلال حملها الثاني تزاحمت أسفار زوجها؛ رغـم مشـاغله ومقالقـه وإرهاقـه لـم يبـد لهـا يومـاً ضـجره مـن الاسـتماع إلـى يوميـات حملهـا. لأنـه توسـم أحيانـاً مـن وراء استطالتها في قص يومياتها رغبة منها في اختبار صبره. تجالد أكثـر. وحتـى ذلـك اليـوم الذي اتفق فيه أن كان في زيارة عمل إلى الولايـات المتحـدة، وتعمـدت ألا تقـيم اعتبـاراً لفارق الوقت بين القارتين، وأن تتصل به في آخر ليله الأميركي لتنذره بأن الآتي أعظـم، وبأن ثمرة أحشائها أنثـى، قـررت أن تطلـق عليهـا اسـم "المرحومـة والدتـه"، لـم يغـادر تجلده ورباطة جأشه. أرادت له يومذاك أن يشاركها مصابها. لم يفعل.

"هل يعاقبني بحلمه وطول باله؟"، ألحّ السؤال على ريم ولكنها لم تحر له جواباً ولا وجدت من يهديها إلى جواب. بعد ولادة "الثانية" نفت ريم نفسـها إلـى بـلاد الأحـزان وباتت تساورها أفكار لم تكن ليخطر لها أنها قـد تخطـر لهـا ببـال: الحاسـدات وعيـونهن، الحظ ومزاجيته.

فامرأة لا تنجب ذكراً ليست امرأة كاملة. كيف فاتها أن تفك هذه الفقرة من جفر العائلات؟ بين يأس ورجاء، مصغية إلى نصائح الأمهات، قارئة في كتب تجمع بين العلم والشعوذة، قررت الصبية، المتمسكة بدفتر شروط السعادة الزوجية والمجتمعية التي لا تتم إلا بصبي، أن تحاول حملاً ثالثاً. ليلة الصورة الصوتية الحاسمة، لم يغمض لريم جفن، وأمام الشاشة المعصومة عن الخطأ ومحضر الطبيب كظمت ريم غيظها ما استطاعت ــ والحق أنها لم تستطع الكثير ــ ثم مضت في حال سبيلها تقطع ما تبقى من شهور حملها على مضض؛ مضض، لم تبذل أدنى جهد في سبيل مواراته.

ثانية، بله ثالثة، أنقذ تجلد الزوج الموقف أو قل زاده توتراً. على غير قصد من الوالدين الكاتمين، كل على طريقته، حدادهما، ملأ ثلاثي البنيات الجميلات البيت حياة، ولكن الحياة تصرف نفسها على الدوام بصيغة الجمع. فـ"الحياة" التي يبعثها الأولاد في بيت ما، غير "الحياة الزوجية"؛ وحياة ريم الزوجية، كما لم يفتها أن تتوجس، دخلت مع "الثالثة" في دائرة الخطر. كل ما في وسعها أن تقوله أنها تستشعر هذا الخطر. عشية سفرة مفاجئة، ككل سفراته، أرادت أن تقول له... خذلتها الكلمات فاستعاضت بالكلمات علبة واقيات دستها في حقيبته، آملة أن يتأول هديتها "الشريرة" أنه عائد إليها ولو سوّلت له نفسه أن يمضي مع غيرها عطلة مسلية!

رغم الصلوات والنذور والمأكولات المنشطة للحيوانات المنوية جاء الحبل الرابع بأنثى سارعت ريم، عبر شبكة القريبات المؤتمنات، إلى إجهاضها خارج البلاد.

مع الرابعة التي ولدت في خيال ريم، ولو أنها لم تر النور ولا أحصيت في عداد الذنوب، اعتبرت أم البنات أن حياتها قد انتهت. كيف لا وصديقاتها، الحاسدات منهن والمحبات، بتن في غناء عن حسدها. كيف لا، والهمس واللمز على مغامرات "المسافر فجأة" وعلى ريم التي "صح منها العزم والدهر أبى" باتا على كل شفة ولسان.

بزواجها منه نالت إحدى الحسنيين، ولكنها لن تقبل لنفسها بأقل من ذلك المثنى القاتل ! هو المشغول بألف هم وهم، لم يعارضها ليلة استدرجته شبه ثمل إلى سرير زوجيتهما. ويوم حان موعد الصورة الصوتية، كان لها ما أرادت: صبي!

ملأها الخبر غروراً أكثر مما ملأها سروراً وقررت أن تحتفظ به لنفسها ، ما استطاعت تسرّرا وما أعانتها على ذلك الطبيعة: "ريم لم تأت إلى الدنيا لتخسري. فحولته له وعشيقاته، أما الصبر، الصبر الصبر، وأمومة الصبي فلك. شاء أم أبى هو المدين لي بالصبي وفوق الصبي بأشياء وأشياء من عدادهن الثلاث البنات". هذا ما فكرت به خلال إشرافها على حمام بناتها.

خلدت البنات إلى النوم. هو غائب في إحدى سفراته "المفاجئة" أما هي فسعيدة هذه المرة بغيابه لأنها لا تريد اقتسام فرحتها معه، وإنما مع والدها الذي لم ينفك يحنو عليها وعلى بناتها. أعدت نفسها للاتصال الهاتفي به كما استعدت، سنواتٍ

خلت، لأول سهرة دعاها إليها أبو البنات و أبو الصبي: "مشتاقة. بيت القصيد لك، عفواً لكما أنت والوالدة؛ عندي لكما خبر سار: بعد أشهر أفوز باللقب الذي تأخرت عن تحقيقه خلال السنوات الماضية. في بطني رجل صغير." وإذ سألها الوالد عن ردة فعل زوجها، مفترضاً أنها سبقت إلى إشراكه في الخبر السعيد: "بعلي؟ بعلي العظيم، فارس أحلامي وأحلام معجباته الكثيرات، مسافر، ولن أزف إليه خبر أمومتي الملكية وأبوته التامة قبل عودته. صحيح. لا عين تعلو على حاجب ولكن... كأني، مذ أوتيت علم ما في أحشائي، أرى نقطة فوق تلك العين. ألا تظن أن عين "بعلي" باتت تستحق أن تنقّط؟".

رشا الأمير

روائية وناشرة